مؤلّفات بديع الزمان أنموذجاً لتقديم الإسلام إلى الغرب

–ABSTRACT–

Bediuzzaman's Works as a Model For Presenting Islam to the West

Şükran Vahide

Translated from Turkish to Arabic by: Orhan Mohammed Ali

The Risale-i Nur educates its reader and trains him to contemplate on the universe in the light of the Qur'an, the final divine revelation. At the same time it demonstrates the impossibility of the conceptual foundations of materialist philosophy, such as accident, compulsive nature and self- sufficiency. Moreover, it proves the superficiality of this vision. It refutes the materialistic interpretation of the universe, science and life. Nursi has been able through his letters to open a bright window towards the knowledge of God. This way, his writings are distinguished from other works. Moreover, it presents the most complicated philosophical aspects in an easy and understandable manner. The Risale-i Nur teaches western and contemporary people the truths of Islam and its deep understanding of the universe, life, man and science. It covers the methodological knowledge that emanates from revelation through its dimensions and various fields (faith, worship, and purification). The Risale-i Nur presents to man knowledge and insights in order for him to recover from the cycle of accelerated life which drifts him away from his humanity. The Risale-i Nur is characterized by its soft and convincing style, especially when it provides education of the facts of Islam to the West. We can say that the approach of the Risale-i Nur has presented the best model to introduce and explain Islam to the West. Thus, the Risale-i Nur offered Islam and Qur'an by unmatched services. It was able to achieve that aim through its interpretation of the Qur'an in which it proves that Islam is the religion of reason and the source of real civilization. Said Nursi has proved that all humanitarian perfections, advancements and happiness are to be found in belief in God, and in admittance to God's Unity and in Islam - which represents the absolute slavery to God and the most exalted religion.

Key Words: Risale-i Nur, Materialism, Modernity, Civilization, Reason.

– ملخص البحث –

شكران واحدة ''ماري ويلد''[1]

ترجمة: أورخان محمد على (رحمه الله)

تربي رسائل النور قارئها وتدرّبه على تأمّل الكون في ضوء القرآن الكريم الوحي الرباني الخاتم، وتبرهن في الوقت نفسه على استحالة مفاهيم أسس الفلسفة الماديّة، كالصدفة والطبيعة والحتمية والأسباب الذاتية، وتدلّل على سطحيّة هذه الرؤية وتفاهتها، وتدحض بذلك التفسير المادي للكون للعلم والحياة، لقد استطاع بديع الزمان من خلال رسائله أن فتح نافذة مشرقة نحو معرفة الله، وبهذا تميّزت رسائله عن سائر المصنفات، فضلا عن كونها قدمت أعقد حقائق علم الكلام بشكل سهل يفهم دون ضرر. فتعلّم رسائل النور الإنسان الغربي والإنسان المعاصر حقائق الإسلام ورؤيته العميقة للكون والحياة والإنسان والعلم، فغطّت المعارف المنهجية المنبثقة عن الوحي بأبعادها ومجالاتها المتنوعة (إيمان، وعبادة، وتزكية)، قدّمت له هذه المعارف والرؤي لتسترد الإنسان نفسه من دوّامة الحياة المتسارعة التي شطّت به عن إنسانيته.

تمتاز رسائل النور بأسلوبها الناعم السهل والمقنع، وخاصة عند تقديم وتعليم حقائق الإسلام للغرب، حيث أننا نستطيع أن نقول بأنّ منهج رسائل النور أعطى أفضل أنموذج لتقديم الإسلام إلى الغرب وشرحه لهم، وقدّم بذلك للإسلام وللقرآن خدمة لا نظير لها، ذلك أنّه بتفسيره رسالة القرآن لإنسان هذا العصر أثبت أنّ الإسلام هو دين العقل وهو منبع المدنيّة الحقيقيّة ورقيّ الإنسانيّة وتقدّمها. لقد قام بديع الزمان بإثبات أنّ جميع الكمالات الإنسانيّة ورقيّها وسعادتها كامنة وموجودة في الإيمان بالله، وفي التصديق بوحدانيّته، وكامنة في الإسلام الذي يمثل العبوديّة المطلقة والدين الأسمى.

لقد قدّم بديع الزمان برسائل النور أفضل أنموذج للتعريف بالإسلام في الغرب، فقدم بذلك أفضل خدمة للقرآن وللإسلام. وبتفسيره رسالة القرآن لإنسان هذا العصر أثبت أنّ الدين الإسلامي هو دين العقل ومنبع الرقي والمدنيّة الحقيقيّة للإنسانية.

عندما نقوم بالتدقيق في رسائل النور التي ألّفها بديع الزمان كأنموذج لتقديم الإسلام في العصر الحديث ولا سيما في بلاد الغرب، فإنّ أوّل ما يتعيّن أن يقال في هذا الصدد هو الإشارة إلى أنّه قد أخبر –ومنذ بداية هذا القرن– بأنّ الإنسانيّة ستتقبّل الإسلام وستتحوّل إليه، وأنّ الإسلام سيحكم المستقبل بالقرآن. وبتعبير بديع الزمان ''لقد تيقّظ الانسان في عصرنا هذا، بفضل العلوم والفنون ونُذُر الحروب والاحداث

المذهلة، وشعر بقيمة جوهر الانسانية واستعدادها الجامع، وادرك ان الانسان باستعداده الاجتماعي العجيب لم يُخلق لقضاء هذه الحياة المتقلّبة القصيرة، بل خُلق للأبد والخلود، بدليل آماله الممتدة الى الابد. وان كل انسان بدأ يشعر -حسب استعداده- أن هذه الدنيا الفانية الضيقة لاتسع لتلك الآمال والرغبات غير المحدودة".[2] ومنه نستنتج أنّ الإنسانيّة ستتقبّل الدين الإسلامي لكونه دين البرهان والعقل، وبذلك سيحكم الإسلام المستقبل.

قال بديع الزمان: "فان المستقبل الذي لا حكمَ فيه الاّ للعقل والعلم، سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامُه الى العقل والمنطق والبرهان."[3]

أعلن بديع الزمان هذه الإرهاصات يوم كان العالم الإسلامي في وضع سيّء جداً، فإضافة إلى كونه تابعاً للغرب من الناحية السياسيّة والاقتصاديّة، كان واقعاً أيضاً تحت تهديد المدنيّة الغربيّة، وكان الإسلام نفسه معرّضاً للهجومات، التي كانت تواجهه في أكثر الأحيان باسم العلم والتقدّم الذي كان الغرب بطله. لذلك فإنّ بديع الزمان عندما قال للشيخ "بخيت"[4] أنّ الدولة العثمانيّة حاملة بدولة أوروبية وستلدها في يوم من الأيّام وأنّ أوروبا حاملة بالإسلام فإنّ الاحتمال الأوّل كان يبدو -مع الأسف- ممكناً، إلاّ أنّ الاحتمال الثاني كان يبدو بعيداً عن مجرد التصور فكيف بالإمكان.

وكجميع إرهاصات بديع الزمان في المواضيع الأخرى، فقد بدأت تخميناته هذه بالتحقّق بشكل لم يكن في عهده من يرى أيّ احتمال لوقوعها، ولنوضّح مثالاً على هذا:

نشرت جريدة "الزمان" في نسختها ليوم ١٢/نيسان/١٩٢٢ خبراً عن نشر تقرير في فرنسا بـ "٤٢" صفحة صادر عن مجلس الفاتيكان، حوى ملاحظات المجلس وقلق الكنيسة الجدّي من زيادة انتشار الإسلام في أوروبا، ولكي تقوم الكنيسة بعكس هذا التيار فقد أجرت أبحاث واسعة، ضُمِّنَ التقرير نتائجها. بيّنت هذه الأبحاث -التي جرت في "٦" بلدان أوروبية- دخول ٥٨١٣٥ فرداً إلى الإسلام، وتخمين أنّ ١٣٠٠٠٠ شخص يدخلون إلى الإسلام في أوروبا كلّ عام، وبجانب التحليلات الدقيقة المنشورة في التقرير حول الأرقام فقد ورد في التقرير التعريف بهم قبل دخولهم الإسلام وكيف ولماذا أسلموا. ما يهمنا في هذا التقرير هو الأرقام، ثمّ الحقيقة الآتية:

بيّن التقرير أنّ ٧٤ % من هؤلاء أسلموا "وعددهم ٥٨١٣٥ فرداً" لأنّ الإسلام أنقذهم من المادية ووهب لهم الطمأنينة والسعادة وكان ٣٢ % منهم قد ذكروا بأنّ رسائل النور كانت السبب في إسلامهم.

ويوافق هذا التقرير إرهاصات بديع الزمان بشكل كبير ويدل في الوقت نفسه على أنّ المسيحيّة بشكلها الحالي عاجزة عن إشباع حاجات الإنسان الغربيّ. وكلّما تمّ التغلّب على الصور النمطية والمفاهيم والقناعات الخاطئة والشائعة في الغرب حول الإسلام والأحكام المسبقة عنه، فإنّ أناساً بأعداد متزايدة على الدوام سيقتنعون بأنّ القرآن وحده هو القادر على الاستجابة لهذه الحاجات. وكما أشار التقرير فإنّ رسائل النور تمثّل أنموذجاً مؤثّراً للإسلام المقدّم للغرب، وعلينا أن نبحث عن أسباب هذا هنا.

لا يمكن القول بأنّ بديع الزمان يخاطب الغرب أو غير المسلمين بشكل مباشر، إلّا أنّ رسائل النور -التي هي تفسير للقرآن- تقوم بإبلاغ الرسالة العالميّة للقرآن، لذا فهي تخاطب الإنسانيّة بأجمعها. وكما نفهم من بعض كلمات بديع الزمان، فإنّه كان يأمل في خلاص كلّ الناس مهما كان منشأهم، أي أنه مع كونه ضد جوانب عديدة من المدنيّة الغربيّة، إلّا أنّه كان يتوقّع ويأمل في دخول الشعوب الغربيّة إلى الإسلام وإتّباعهم للقرآن وخلاصهم عن هذا الطريق. ويكرّر في العديد من كتبه حول ظهور المسيحيّة الحقّة في المستقبل وإتّباعها للقرآن، وتوحيد جهودها مع الإسلام في النضال ضد الإلحاد.[5] وبهذا الصدد نسجّل فكرة جوهرية مفادها تمييز الاتّجاهات النابعة من الفلسفة في المدنيّة الغربيّة -والتي أصبحت مصادر للإلحاد- عن الاتجاهات النابعة من المسيحيّة، ذلك أنّ العلاقات بين الإسلام والغرب كانت طوال التاريخ علاقات منافسة وخصام، وفي بداية هذا العصر بلغت سيطرة الغرب على العالم الإسلامي الذروة، لذا فإنّ مؤلفات بديع الزمان توجّهت وبمقياس كبير لنقض أسس التفكير الغربي، والمدنيّة الغربيّة، وصد مهاجمة الغرب القرآن والإسلام والدفاع عنهما، وهو في الوقت نفسه خطاباً للمسلمين المعاصرين الواقعين تحت تأثير الغرب والفلسفة الغربيّة، وكلّ ذلك جعل لرسائل النور موقعاً ممتازاً، يؤمّن فهم الغربيّين لحقائق الإسلام بيسر وسهولة في الوقت نفسه.

وبصعود الغرب وتدهور العالم الإسلامي وتأخّره، فقد عدّ الغرب سيادته وسيطرته دليلاً على تفوق مدنيّته على المدنية الإسلاميّة، وتمكينا لهيمنته هاجم القرآن منبع ومصدر المدنية الإسلاميّة، وفعل هذا باسم العلم والرقي الذي أعلن أنّه أثر من آثار التفكير والمدنية الغربية.

نذر بديع الزمان حياته للدفاع عن القرآن بصدّ الهجومات التي يتعرّض إليها، ولأجل تحقيق هذه المهمّة يتعيّن عليه البرهنة على أنّ المدنيّة والسعادة الحقيقيّة والرقيّ الحقيقي للإنسانيّة لا توجد إلّا في الإسلام.

ولأجل تحقيق هذه المهمّة درس العلوم الحديثة والفلسفة، وهذا ما لم يفعله أيّ عالم ديني آنذاك، وبهذا كان يستطيع أن يناضل ضدّ أعدائه بنفس أسلحتهم. وعندما تأسّست الجمهوريّة ''التركية'' واتخذت الفلسفة الماديّة الغربيّة أساساً للدولة ولأيدولوجيّة المجتمع، وقامت بتدابير عميقة لقلع الإسلام من جذوره، لم يكن هناك من يستطيع النضال بفعاليّة ضدّ هذه المحاولات المشؤومة سوى بديع الزمان، ولمواجهتها درس وبحث المسألة من أساسها، وبدأ بتأليف رسائل النور لإثبات معقوليّة وحقيقة حقائق القرآن والإيمان، وعدم منطقيّة الفلسفة الماديّة المتداولة في الغرب القائمة على أساس مفاهيم مثل ''الصدف'' و''الطبيعة'' وتناقضها فيما بينها، وهو جهد متزامن مع صد الهجومات التي تعرّض لها القرآن، وإثبات تفوّق القرآن المطلق الذي لا يقبل أيّ قياس. وعندما كانت رسائل النور تقترب من الحقائق التي يقدمها القرآن ويعلّمها، كانت تعقد في كثير من الأحيان مقارنات بينها وبين الفلسفة، وتشرح ماهية ومصدر ونتائج كلّ منهما، ممّا كان يسهّل على كل من اصطبغت نظرته للحياة وللوجود بصبغة التفكير المادي الغربيّ معرفة فكرته وسلوكه بسهولة من هذه المقارنة، ومكمن الخطأ الذي وقع فيه ويصل إلى الحقيقة. يسّرت هذه الطريقة الواضحة والسهلة التي سلكها بديع الزمان اكتشاف أساس علمي تحليليّ لفحص أفكاره ومعرفة الحقيقة وكيفيات الوصول إليها.

الدين والفلسفة في رأي بديع الزمان

قبل أن نلقي نظرة على الجوانب الأخرى من رسائل النور، نلقي نظرة على آراء بديع الزمان حول الدين والفلسفة، ذلك لأنّ هذه الآراء تشكل أساس الأفكار التي صوّرها بديع الزمان وأظهرها في رسائله:

قسّم بديع الزمان تاريخ الإنسانيّة إلى تيّارين، أحدهما تيّار النبوة والآخر تيّار الفلسفة والعلوم، وربطهما بذات الإنسان، وبناء عليها صوّر نتائجهما.

فالنبوة -التي تمثل الوحي الإلهي- تخاطب قلب الإنسان، أمّا الفلسفة فتخاطب عقله، والهدف هو اتفاق الإثنين، أي قيام الفلسفة باتباع الدين والنبوة وخدمتهما، وكلّما تمّ هذا ذاقت الإنسانية طعم السعادة وعاشت في انسجام وتناغم، وعندما يفترق أحدهما عن الآخر ينسحب الخير والنور إلى جانب النبوة، ويتراكم الشر والضلالة -كما حدث في الغرب- في جانب الفلسفة. والحقيقة أنّ بديع الزمان يتكلم عن ''أوروبيتين''. الأولى: هي أوروبا التي قدّمت العدل والحقيقة ''المستمدّة من المسيحيّة الحقيقيّة'' والأمور المفيدة إلى الإنسانية. والثانية: هي أوروبا المتّبعة لفلسفة

الطبيعة والتي رجّحت جانب الشر في المدنيّة على جانب الخير فيها، وهي المسيطرة حالياً على أوروبا الأولى.

فإذا نزلنا في هذا إلى الإنسان الفرد، أي إلى ''الأنا'' فإنّ هذا هو نفس موقف الشخص الفرد الذي ينكر الوحي ويثق بعبقريّته. فلكونه يعد نفسه مالكاً لنفسه فهو يظنّ الشيء نفسه بالنسبة للآخرين، وهذا هو أساس الفلسفة الماديّة، فبدءًا من المجرّات الهائلة وانتهاءً بأصغر الذرات، فإنّ جميع الأسباب بدلاً من إضافتها بشكل مباشر إلى خالقها، يتوهّم بأنّها هي صاحبة القدرة، إذ يفترضون بأنّ للأسباب تأثيراً حقيقياً، وأنّ لها قدرة الخلق من العدم. ومثل هذا الشخص يضيف إلى مفاهيم زائفة مثل الطبيعة أو قوانينها قدرة الخلق، ويفسّر كلّ ما يراه في الدنيا تفسيراً قائماً على الصراع والنزاع.

وتنعكس رؤيته هذه على مبادئ حياته الاجتماعية، مما شجّع ادّعاء القدرة المطلقة والتملّك وأدّى إلى ظهور الأصنام والطغاة. وهذه الضلالة مصدر كل الآلام، بينما جميع أنواع السعادة الحقيقيّة تنشأ من الإيمان المرتبط بسلسلة النبوّة. وقد أظهرت رسائل النور هذه الحقيقة بإيراد قياسات عديدة، اكتفيت بذكر نماذج منها.

أمّا الشخص الذي يقبل الأسس التي تقدّمها سلسلة النبوّة والدين، فإنّه يعرف أنّه مخلوق، ولا يمثّل نفسه بل يمثّل معنى غيره، أي يقبل أنّه ليس إلّا عبداً لله. مثل هذا الشخص سيتعلّم من الكتب السماويّة الماهية الحقيقيّة لنفسه ولجميع الموجودات في الكون، ويعرف واجباته الحقيقيّة.

وكما يضيف نفسه إلى صانعه ومالكه الحقيقي، فإنّه يفعل الشيء نفسه بالنسبة لجميع الموجودات وللكون بأجمعه، فقد تحوّل وجهه عن الوجه الظاهري للأسباب إلى المعنى الحقيقيّ الكامن وراءه، وسيرى الموجودات ضمن نظام للتعاون المتقابل، ضمن تسليم كامل، وتقوم القوانين السماوية الموازية لهذه النظرة بتنظيم حياته الاجتماعيّة.

وإضافة إلى هذا الأنموذج الديني والفلسفي، فإنّ هناك سبباً آخر يعطي لرسائل النور مقبولية وميزة عند تقديم الإسلام إلى الغرب، وهو كونها تخاطب العقل، فليست هناك عبارة واحدة ولا ادّعاءً واحداً لا يستند إلى دليل، فجميع المسائل التي تتناولها وجميع الحقائق الإيمانية التي تبحث فيها، تقدّم بشكل منطقي وفي صورة آراء مبرهن عليها. ولكن لكون معظم هذه المسائل -بسبب طبيعتها وماهيتها- مسائل عميقة ومن الصعب فهمها، فإنّ بديع الزمان يستعين على ذلك -مقتبسا منهجه من القرآن- بإيراد القياسات وضرب الأمثال، وبذلك فإنّه يقرّب المعاني إلى الأذهان كما يفعل

التلسكوب، ويسهّل فهمها. ووضّح جميع الحقائق الإيمانيّة وأثبتها بهذا الشكل، وقدّمها بصورة سهّلت فهم معانيها والنفوذ إلى أعماقها، ذلك أنّ العقل -كما أوضح بديع الزمان- كان مسيطرا على الغرب الذي كان منبعاً للفلسفة، أمّا في الشرق حيث ظهر الأنبياء فإنّ القلب هو المسيطر. أمّا الآن فإنّ البشريّة التي أفاقت ونهضت بدأت تبحث عن الدين الحق، وهي تريد الاقتناع قبل كل شيء، وبأجوبة منطقيّة عن الأسئلة الآتية: ''من أين جئت؟ وما سبب مجيئي إلى هذه الدنيا؟ وإلى أين أنا ذاهب بعدها؟'' والحقيقة أنّها تريد الإيضاحات المنطقيّة لحقائق الإيمان.

العلم والدين

وهكذا نكون قد وصلنا إلى النقطة الثالثة: إذ تقوم رسائل النور بالبيان الواضح أنّ القرآن لا يرى أيّ تناقض أو تضادّ بين العلم والدين، وقد أبان بديع الزمان هذا الخصوص منذ شبابه حيث قال بأنّ العلم لا يعادي الدين، ليس هذا فحسب، بل يجب أن يدرّسا معاً، ففي سنة ١٩١٠ عندما تناول بديع الزمان موضوع تطوير المدارس الدينيّة قال:

''ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبإمتزاجهما تتجلّى الحقيقة، فتتربّى همة الطالب وتعلو بكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الاولى والحيل والشبهات في الثانية.''[6]

حاول أعداء القرآن إثبات أنّ القرآن لا يمكن أن يكون مصدراً للرقيّ، كما حاولوا من جانب آخر نشر المقولة التالية ''إنّ بعض آيات القرآن تتناقض مع العلم'' وذلك لكي يهزّوا ثقة وإيمان الشعب به، وقام بديع الزمان في كلّ مراحل حياته بردّ هذه الشبهات والانتقادات والخلوص إلى وضع الدين والعلم معاً وجنباً إلى جنب.

ويعد هذا الموضوع بالنسبة للغربيّين مهمّ جداً، ذلك لأنّ العديد من الأوروبيين يعتقدون -استناداً إلى تاريخ المسيحيّة وتطوّرها- بأنّ العلم يناقض الدن ويعاديه، بينما يصف بديع الزمان الإسلام بأنّه ''سيّد العلوم ومرشد العلوم الحقيقيّة ورئيسها وأبها''. بدلاً من ردّ الفعل ورفضه، أو عزل الدين عن الحياة الدنيويّة وجعل الأفراد يعيشون في دائرة ضيّقة من حياة معنويّة ضيّقة خاصّة بهم، فإنّ القرآن يكسبنا معرفة الله ويأمرنا في الوقت نفسه باستعمال عقولنا في عباداتنا وفي جميع صفحات ومراحل الحياة، وبذلك يفتح الطريق أمامنا لكي يندرج العلم نفسه في عبادة. إنّ العلم الذي يكشف لنا الغاية الإلهيّة من خلق الكون والهدف النهائي له، هو نفسه مهمّة الإنسان ووظيفته وعبادته كذلك. والقرآن يوجّه الأنظار والعقول إلى هذه الغايات ويحث الإنسان للوصول إلى

هذه الحقائق عن طريق العلم والتقدم. وتوضيحا لهذه النقاط نسرد نماذج من الطرق التي استعملتها رسائل النور -باعتبارها تفسيراً للقرآن- مركزين على بيان السبيل الجديد الذي اختطّته.

النقطة الأولى التي يجب بيانها في هذا الخصوص هي أنّ رسائل النور توجّه الأنظار إلى الموجودات التي حوالينا وإلى الكون، وتقترب من حقائق الإيمان بوساطة الكون والتأمّل فيه. وهذه الناحية من رسائل النور هي تفسير لوجه القرآن المطلّ على عصرنا، فالعديد من آيات القرآن تحثنا على تأمّل الكون والمخلوقات الموجودة فيه وطرق سيرها وعملها، كوسيلة لمعرفة الله والحقائق الإيمانيّة الأخرى كوجود الله ووحدانيّته والحشر. وأكثر الآيات التي تؤكّد عليها رسائل النور هي هذه الآيات، لكي تبرهن على حقائق الإيمان وتصدّ الهجومات على القرآن.

لذلك فإنّ طراز اقتراب رسائل النور من الحقيقة ليس غريباً من حيث الأساس عن طريقة اقتراب الإنسان من الحقيقة، بل يشبهها وينسجم معها، ذلك أنّ عصرنا هذا هو عصر العلم. وما العلم إن لم يكن استخراج أسرار الكون؟ والغربيّ المعاصر ليس غريباً عن الكون وعن طريقة عمله، لأنّه متعوّد على مراقبة الكون وتأمّله، ونظره مركّز عليه.

ثم إنّ رسائل النور تنظر إلى الكون بمنظار العلم، وهي تقوم في الأغلب بالتدقيق في معرفة الكون في ضوء العلوم كالجيولوجيا والبيولوجيا.

ومع ذلك فإنّ رسائل النور -مستلهمة من القرآن الكريم- تدقّق في معرفة الكون بالشكل الذي أراده القرآن، أي ككائن "لا يعبّر عن نفسه بل عن معنى غيره" أي أنّ الكون -من زاوية هذه النظرة- "كتاب كبير" ووظيفته هي الإخبار عن كاتبه. وهذا الكتاب يقرأ لكي تفهم معانيه وخالقه منه.

النوافذ المفتوحة على التوحيد

تدرّب رسائل النور على تأمّل الكون في ضوء الوحي القرآنيّ، وبه تبرهن من جانب على وجود الله وعلى وحدانيّته وعلى الحقائق الإيمانيّة الأخرى، وتبرهن من جانب آخر على استحالة أسس الفلسفة الماديّة، من نحو مفاهيم الصدف والطبيعة والأسباب، وتؤكّد سطحيّتها وتفاهتها، وتدحض بذلك التفسير المادي للعلم. ولهذا شرحت رسائل النور ماهية الكون والنظام والانتظام السائد في كلّ شيء فيه، والتوازن والمقاييس الحسّاسة فيه، والحكمة البادية في كلّ شيء، وفوائده وعلاقة وارتباط صيدلية الكون بعضها ببعض، وكونها تشكّل بأجزائها وحدة واحدة، وتبرهن ببراهين

عديدة بأنّ جميع ادّعاءات الفلسفة المادية مستبعدة وخارج كلّ احتمال علمي موضوعي، وهذا بحاجة إلى شرح ببعض الأمثلة القصيرة:

أوّل مثال يتبادر إلى الذهن في هذا الموضوع هو ما جاء في ''الموقف الأوّل'' من ''الكلمة الثانية والثلاثين''، ففي هذا المثال يقال أنّ وكيل أهل الضلالة يدّعي بأنّه - باسم الأسباب والطبيعة والفلسفة- صاحب هذا الوجود بدءًا من الذرّات وانتهاء بالنجوم. فإذا بدأنا بالذرّة ثم بكريّة حمراء في أحد شرايين الجسم الإنساني، ثم انتقلنا إلى إحدى الخلايا، ثم إلى الجسم الإنساني ثم إلى المخلوقات الأخرى، فإنّنا سنرى أنّها تردّ بلسان الحكمة جميع ادّعاءات وكيل أهل الضلالة، وتبيّن أنّ النظام الموجود فيها وفي الموجودات ككلّ نظام بالغ الكمال إلى درجة أنّه لا يسمح في أيّ موضع بأيّ شكل من أشكال الشرك أو التدخّل. ودليل الوحدانية هذا يعطي مثالاً واضحاً لما قامت به رسائل النور بقراءة وتأمّل الكون في ضوء العلوم المادية من أجل إثبات الحقائق الإيمانية وردّ الفلسفة المادية.

أي أنّ من يكشف نظام الكون في هذا المثال ويعرّفه لنا هو العلم الحديث نفسه.

أمّا الهامش الطويل في ''الموقف الأوّل'' الذي يصوّر ويشرح نظام التنفّس ونظام الدورة الدمويّة في جسم الإنسان فهو مثال آخر في هذا الموضوع.

هناك أمثلة عديدة في رسائل النور في هذا الموضوع، ورد أحدها تحت اسم ''نكتة توحيديّة ظريفة''.[7] ومثال آخر ورد في ''الكلمة الخامسة والعشرين'' الذي شرح فيه تفسير الآية الكريمة ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾[النبأ:٦] فعندما يقوم ببيان صفة الشمول الموجودة في ألفاظ القرآن، ويشير إلى أنّ الجميع، بطبقاتهم المختلفة -سواءً أكانوا منتسبين إلى الأدب أم إلى العلم- يأخذ كلّ واحد منهم حصّته ونصيبه من هذه الآية، نراه ملمّاً بعلوم الجغرافيا والجيولوجيا.

وإذا أتينا إلى ''الطبيعة'' وإلى الأسباب، نرى أنّ رسائل النور تحتوي على أدلة عديدة حول كون هذه المفاهيم بأجمعها مفاهيم متهافتة، ودون أيّ سند او أيّ أساس. ويتجلى هذا على الخصوص في رسالته ''الطبيعة''، فقد هدمها تماماً بوساطة تسعة من المحالات والمستحيلات، ويبيّن ''أنّ ما يسمونه الطبيعة ليس إلّا شيئاً وهميّاً لا حقيقة له، إذ ليست الطبيعة في الحقيقة سوى القوانين المعنويّة لنظام الكون المخلوق من قبل سلطان الأزل. فهذه القوانين لا تملك إلّا وجوداً علميّاً ولا تملك أيّة قدرة على الخلق''.

وقال بديع الزمان أنّه لو تمّ افتراض النظام الموجود في الكون ناظماً، والصنعة صانعاً، والقوانين الجارية فيه مصدراً للقدرة كما يفترض الماديّون، عند ذلك يجب اعتبار كلّ سبب بل حتى كلّ ذرّة صاحبة علم وقدرة لخلق الموجودات كلّها، أي يجب إضفاء كلّ صفات واجب الوجود على كلّ ذرّة من هذه الذرات وكلّ سبب من هذه الأسباب، وبعبارة أخرى يتحتّم على من لا يؤمن بإله واحد أن يؤمن بآلهة لا تُعدّ ولا تحصى. وعلاوة على هذا فإنّ هذه الآلهة التي لها القدرة لخلق كلّ شيء ما عداها هي، يجب أن تتّفق مع الآلهة الأخرى المنافسة لها، وذلك لكي يسود ويستمرّ النظام في الكون. بينما لا يوجد أيّ مكان مهما كان صغيراً، ولا أيّة إمكانيّة أو احتمال لوجود أيّ شريك يتدخّل في هذا الكون، بدءًا من جناح الذبابة صعوداً إلى نظام المجموعة الشمسيّة. ولو كان هناك أيّ تدخّل من قبل أيّ شيء غير الخالق الواحد الأحد، لأدّى ذلك إلى اضطراب الكون ولما بقي أيّ نظام فيه.

ويشرح بديع الزمان كيف أنّ الأسباب لا تملك قدرة الخلق، وأنّ الخلق أمر خاص بالله بالشكل التالي:

''مادامت طبيعة كلّ شيء مخلوقة كالشيء نفسه، لأنّ تكوّنها محدثٌ -غير قديم- وعليها علامة الصنعة والإتقان، وأنّ سبب وجود هذا الشيء الظاهري هو أيضاً مصنوع حادثٌ. ولما كان وجود أيّ شيء مفتقراً إلى وسائل وآلات وأجهزة كثيرة فلابدّ من قدير مطلق القدرة ليخلق تلك الطبيعة في الشيء، ويوجد ذلك السبب له، ولابد أن يكون -هذا القدير المطلق القدرة- مستغنياً غناءً مطلقاً، فلا يشرك الوسائط العاجزة في إيجاده للشيء وفي هيمنة ربوبيّته عليه.

فحاش لله أن يكون سواه القدير المستغني المتعال، بل هو سبحانه وتعالى يخلق المسبّب والسبب معاً من علوّه خلقاً مباشراً، ويوجد بينهما سببيّة ظاهرية وصوريّة، ويقرن بينهما من خلال ترتيب وتنظيم، جاعلاً من الأسباب والطبيعة ستاراً ليد قدرته الجليلة، وحجاباً لعظمته وكبريائه، ولتبقى عزته منزّهةً مقدّسة في عليائها، ويجعل تلك الأسباب موضع الشكوى لما يتراءى من نقائص، ولما يتصوّر من ظلم ظاهري في الأشياء''.[8]

وحكى في كتاب ''الآية الكبرى'' سياحة كونيّة خياليّة لأحد السيّاح، سأل فيها كل طائفة من المخلوقات عن خالقها، ويتعلّم من كلّ منها بلسان فطرتها وبطور خلقها شهاداتها. وبينما يقوم بديع الزمان ''ضمن هذا الترقي العام في مدارج معرفة الله'' بتعريفنا بالطريق المؤدي إلى معرفة الله بوساطة الحقائق المشاهدة في الكون وبوساطة

أسمائه الحسنى وصفاته، فإنّه يقوم في الوقت نفسه بالبرهنة على وجود الله وعلى وحدانيّته وعلى جماله وكماله، وفي ذلك قال:

"فيكون وجوده سبحانه للبصيرة أظهر من الشمس للبصر وأسطع منها، فتدركه حتّى كأنّها تراه؛ ذلك أنّ الكتاب الجميل ذا المعنى اللطيف، والبناء المنتظم المتقن، يستدعيان بداهة فعلي الكتابة والبناء، وفعلي الكتابة الجميلة والبناء المنتظم يستدعيان أيضاً بداهة اسمي الكاتب والبنّاء، واسمي الكاتب والبنّاء يستدعيان أيضاً بداهة صنعة الكتابة والبناء وصفتيهما، وهذه الصنعة والصفات تستلزمان بداهة ذاتاً تكون موصوفة وصانعة، ومسمّىً، وفاعلة، إذ كما لا يمكن أن يكون هناك فعل دون فاعل، ولا اسم دون مسمّى، كذلك لا يمكن أن تكون صفة دون موصوف، ولا صنعة دون صانع.

وهكذا يتقرّر بناء على هذه الحقيقة والقاعدة أنّ هذا الكون -بموجوداته كافّة- قد كتب بقلم القدر، وبُني بمطرقة القدرة؛ فكُتب فيه ما لا يحدّ ممّا هو بحكم الكتب والرسائل ذات المعاني اللطيفة. وبني فيه ما لا ينتهي ممّا هو بمثابة بنايات وقصور. فتشير كلّ واحدة منها إشارات لاحدّ لها بآلاف الأوجه، وتشهد معاً بوجوه غير محدودة شهادات لا نهاية لها على وجوب وجود ووحدانيّة ذات جليلة أزليّة أبديّة، هي موصوف تلك الصفات السبعة المحيطة القدسيّة ومعدنها؛ بالأفعال الربانيّة والرحمانيّة غير المتناهية، وبجلوات غير محدودة لألف اسم واسم من الأسماء الحسنى التي هي منشأ تلك الأفعال، وبالتجلّيات غير المتناهية للصفات السبعة السبحانيّة التي هي منبع تلك الأسماء الحسنى... وكذا فإنّ ما في تلك الموجودات كلّها من جميع أوجه الحسن والجمال وأنماط النفاسة والكمال، ومن جمال قدسيّ يليق بتلك الأفعال الربّانية والأسماء الإلهيّة والصفات الصمدانية والشؤون السبحانيّة ويوافقها، كلّ منه -بحد ذاته- يشهد وبمجموعه يشهد بداهة على الجمال المقدّس والكمال المقدّس لذاته سبحانه وتعالى".[9]

وصوّر بديع الزمان نظرة رسائل النور إلى الكون بالحكمة الآتية:

"وفي كل شيء له آية تدل على أنّه واحد". وهكذا فإنّ رسائل النور تفتح -وفق منهج القرآن- نافذة من كل شيء نحو معرفة الله، وهو ما يميّزها عن كثير من الكتب، ككتب علم الكلام، إذ استطاعت الرسائل استحصال علم يحتاج إلى عشر سنوات في سنة واحدة فقط، فإنّها استطاعت أن تقدّم أعقد الحقائق بشكل سهل فهمه ودون ضرر يذكر. وشبّه بديع الزمان رسائل النور بعصا موسى، فأين ما ضربها تفجّر من ذلك الموضع الإيمان بالله ومعرفته، فحتّى من الذرة الصغيرة يستطيع البرهنة على وجود الله

وعلى وحدانيته وعلى علمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته الأخرى بشكل يسهل على الجميع فهمه. ولاشكّ في فوائد طريق رسائل النور، التي تعلّم حقائق الإسلام للإنسان الغربي وللإنسان المعاصر الذي أخذته دوّامة الحياة المتسارعة، ولم تتيسر له فرصة الحصول على العلوم الدينيّة ولا اكتساب الثقافة الدينيّة فوائد عديدة.

وفعلاً فإنّ من أهمّ مميّزات رسائل النور قدرتها على إيصال أعمق المسائل الإيمانيّة إلى كلّ إنسان بما فيها العامي بشكل سهل ودون تعقيد أو صعوبة أو ضرر. فاشتهر بديع الزمان بمكنة وبراعة إظهار مثل أدلّة حاسمة حول الحشر وحول الآخرة، بمسالك الظاهر أنّه لم يسبق إليها، إذ يبيّنها في بضع صفحات وبأسلوب واضح وبرّاق موضوع القدر والإرادة الجزئيّة ويبرهن على وجود الملائكة وبقاء الروح... هذه أمثلة فقط في هذا الموضوع.

وعلاوة على هذا يتناول بديع الزمان العديد من المواضيع العويصة في الدين وعالم الوجود، وشرحها بطريقة منطقيّة، منها ذات الإنسان أو ''الأنا''، ومسائل الحياة والموت، وتحوّلات الذرّات، والفعاليّات الموجودة في الكون والمستمرّة دون كلل، والموجودات من أين جاءت وإلى أين تذهب؟...

وكلّما تفحّصنا رسائل النور يصبح الكون -لمن يستطيع مطالعته- كتاباً يفشي جميع أسرار عالم الوجود.

من الشرور إلى الخير، ومن الشقاء إلى السعادة

ما يمكن ذكره في هذا الخصوص هو أنّ الشرور والكوارث الموجودة في الدنيا تعدّ مشكلة في نظر الغربيّين، وهو أمر لا يمكن تفسيره، أو هو ظلم لاعدالة فيه، إلى درجة أنّه يؤدي إلى الشك في وجود الله -حاشاه- وأفضل الأجوبة التي أعطيت حول هذه المسائل، وأكثرها إقناعاً هي الأجوبة التي أعطتها رسائل النور.

فمثلاً بيّن بديع الزمان أنّ الخير والجمال والكمال غاية أصيلة ومطلقة في الكون وفي تنظيم الكون. وكلّ علم من العلوم يشرح النظام والكمال الموجودين في ساحته وفي مجال اختصاصه، ويبرهن على هذه الحقيقة؛ أمّا الشر والقبح والقصور والعبثيّة فقليلة، وتأتي بالدرجة الثانية وهي في مرتبة التابع للآخر، فهي لم تدخل الكون بذاتها بل دخلت كوحدة قياس لكي توضح الجمال الواحد في مراتب مختلفة وبشكل منفصل ومستقلّ.

ثمّ قد يقبل شر صغير من أجل الحصول على خير كبير، فلو تُرك وسحب فهو

وسيلة لخير عميم، ومعنى هذا أنّه تم اقتراف شرّ كبير. وهذا هو سبب خلق الشرور والكوارث والشياطين وما شابه، ذلك أنّ نتائج مهمّة جدّاً تظهر في الكون بخلق هذه الأمور.

ويوضح بديع الزمان فذكر أنّ الشرور -حتى خلق الشيطان وتسليطه على الإنسان- تكون سبباً لرقيّ دائم وغير محدود للإنسان، فالإنسان ينال هذا الرقي والتطور إلى الافضل عن طريق النضال والسباق، فهذه الدنيا ميدان امتحان، فبالنضال والسباق تتميّز الأرواح الشبيهة بالفحم عن الأرواح الشبيهة بالألماس، وإلّا بقي الاثنان معاً وصعب التمييز بينهما. لذا ومن هذا المنطلق فإنّ وجود الشر وخلق الشيطان لا يكون شرّاً، لأنّ وجودهما وخلقهما يؤديان إلى نتائج مهمة.

"وعلى غرار وعلى غرار هذا فان الصانع الجليل قد ألبسك جسماً بديعاً مزيناً بالعين والاذن والانف وغيرها من الاعضاء والحواس. ولأجل اظهار آثار اسمائه الحسنى المتنوعة يبتليك بانواع من البلايا فيمرضك حيناً ويمتعك بالصحة احياناً اخرى، ويجيعك مرة ويشبعك تارة ويظمئك اخرى. وهكذا يقلبك في امثال هذه الاطوار والاحوال لتتقوى ماهية الحياة وتظهر جلوات اسمائه الحسنى."[10]

وفي الواقع فإنّ السعادة الحقيقيّة التي يسعى إليها الإنسان هي الإيمان بوحدانيّة الله، وما يتبع هذا الإيمان من توكّل. ويرى بديع الزمان أنّ أحد أسباب نجاح رسائل النور وانتشارها في جميع الأرجاء يكمن في قيامها بإثبات هذه الحقيقة، فبينما ترينا رسائل النور -بعد إيراد قياسات عديدة ومختلفة- الآلام الناتجة عن الذنوب وعن العصيان، تقول بأنّ الالحاد والضلالة تحوّل هذه الحياة الدنيا إلى ما يشبه الجحيم، كما تصوّر اللذائذ الموجودة في الأخلاق الحميدة وفي أفعال الخير، لتبرهن على أنّ الإيمان يحوّل هذه الحياة الدنيويّة إلى ما يشبه الجنّة. ومثل هذه التحليلات أكثر نفعا وأجدى منهجا وفعالية، ذلك أنّه يكون بمقدور كلّ شخص تشخيص ومعرفة وضعه. ثم إنّ هذه المقايسات ترينا ماهية الضلالة والنتائج المتولّدة عن التطلع إلى الدنيا بمنظار الفلسفة، فمن ينظر بهذا المنظار سيحسّ -نتيجة حال الدنيا- بالألم لحال الناس ويحس بالألم لحاله، وكلّ ذلك ناتج من عدم معرفة رب الكون أو معرفته بشكل ناقص وقاصر، ولو تمّ النظر إلى الدنيا في ضوء القرآن لزالت كل هذه الآلام واندملت كل هذه الجروح، ورسائل النور لا تمارى ولا تتردد في إثبات هذه الحقيقة.

الاسلوب الهين والمقنع

لا نستطيع هنا أن نمر على هذا الموضوع دون ذكر ميزة أخرى لرسائل النور، وهي

الأسلوب الناعم والسهل والمقنع لها عند إيرادها لهذه الأمثلة. والحقيقة أنّ هذه الميزة تعدّ ميزة رئيسيّة عند تقديم وتعليم حقائق الإسلام للغرب. ونقدّم هنا فقرة من تفسير الآية الرابعة من سورة البقرة كمثال على ما نقول، فهذه الفقرة تبين طريقته التي دافع عنها في دعوة المسيحيّين إلى الإسلام.

يحثّ القرآن الكريم أهل الكتاب على الإيمان، ويستعمل معهم أسلوباً هيّناً ليّناً حيث:

''لايشقنّ عليكم الدخول في هذا السلك، اذ لاتخرجون عن قشركم بالمرة بل انما تكملون معتقداتكم، وتبنون على ماهو مؤسس لديكم'' اذ القرآن معدِّل ومكمِّل في الاصول والعقائد، وجامع لجميع محاسن الكتب السابقة واصول الشرائع السالفة. إلا انه مؤسِّس في التفرعات التي تتحول بتأثير تغير الزمان والمكان؛ فكما تتحول الادوية والالبسة في الفصول الاربعة، وطرز التربية والتعليم في طبقات عمر الشخص؛ كذلك تقتضي الحكمة والمصلحة تبدل الاحكام الفرعية في مراتب عمر نوع البشر. فكم من حكم فرعي كان مصلحة في زمان، ودواء في وقت طفولية النوع، لايبقى مصلحة في آخر، ودواء عند شبابية النوع. ولهذا السر نَسخَ القرآن بعض الفروع. اي بيّن انقضاء اوقات تلك الفروع ودخول وقت آخر.''[11]

الخاتمة:

وفي النتيجة نستطيع أن نقول ما يأتي: إنّ بديع الزمان برسائل النور أعطى أفضل أنموذج لتقديم الإسلام إلى الغرب وشرحه لهم، وقدّم بذلك للإسلام وللقرآن خدمة لا نظير لها، ذلك أنّه بتفسيره رسالة القرآن لإنسان هذا العصر، أثبت أنّ الإسلام هو دين العقل وهو منبع المدنيّة الحقيقيّة ورقيّ الإنسانيّة وتقدّمها. وفي زمن يقدّم فيه الإسلام على أنّه دين المتعصّبين والرجعيّين، أو كإيدولوجيّة سياسية أو أنّه يمثّل بوساطة بعض الطغاة والمجرمين، قام بديع الزمان بإثبات أنّ جميع الكمالات الإنسانيّة ورقيّها وسعادتها كامنة وموجودة في الإيمان بالله، وفي التصديق بوحدانيّته، وكامنة في الإسلام الذي يمثل العبوديّة المطلقة والدين الأسمى.

ويرى بديع الزمان أنّ السيف الماسي القاطع لبراهين الإسلام يكفي لنشر رسالة الإسلام ودفع الدعوة الإسلاميّة إلى أعلى. فكما كتب في بداية العصر قائلا: ''إن الظهور على المدنيين المثقفين انما هو بالإقناع وليس بالضغط والإجبار''.[12]

ووفّق الله ورأينا تباشير إرهاصات بديع الزمان تتحقق وأنّ القرآن سيحكم في المستقبل وأنّ الغرب سيدخل إلى الإسلام على شكل دول، فإنّ البلاغة ستكون أمضى

سلاح في المستقبل ''أو في آخر الزمان''، أي قابليّة إقناع الآخرين بالأفكار، وهذا المستقبل آتٍ لاريب فيه. وبما أنّنا وُهبنا طريقاً قيّماً جدّاً في نشر رسالة القرآن، فنحن نأمل أن يتحقق الشق الأوّل من توقّع بديع الزمان ''وهو أنّ القرآن سيحكم في المستقبل'' إن شاء الله تعالى.

* * *

الهوامش:

[1] شكران واحدة ''ماري ويلد'' باحثة وكاتبة: ولدت عام ١٩٤٨ في مدينة لانكشاير في إنكلترة. تخرجت سنة ١٩٨٠ من قسم الأدب التركي والفارسي في كلية الاستشراق/ جامعة دورهام. اشتغلت تحت إشراف المستشرق الألماني البروفسور الدكتور باول لونت في رسالة دكتوراه عن مؤلفات ''حسين واعظ الكاشفي الهيراتي'' وهو من أدباء القرن الخامس عشر. أسلمت سنة ١٩٨١ بعد أن قرأت رسائل النور واتخذت اسم ''شكران واحدة'' وتقيم حالياً في تركيا حيث تُعدّ بحوثاً حول رسائل النور، قامت بترجمة كليات رسائل النور إلى الإنكليزية. وطبعت في إسطنبول والقاهرة ودلهي والفلبيين.

[2] بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الاسلام ''الخطبة الشامية'' ص: ٤٩٤.

[3] المصدر السابق. ص: ٤٩٥.

[4] وهو الشيخ محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي مفتي الديار المصرية ومن كبار فقهائها. ولد في بلدة (المطيعة) التابعة لمحافظة أسيوط من صعيد مصر، وتعلم في الأزهر واشتغل بالتدريس فيه، وانتقل إلى القضاء الشرعي سنة (١٢٩٧هـ) واتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني، ثم عين مفتياً للديار المصرية سنة ١٣٣٣ هـ، وله كتب قيمة، وتوفي سنة ١٣٥٤ هـ انظر''الأعلام للزركلي'' (٢٧٤/٦).

[5] الملاحق، ملحق اميرداغ ص.٣٤٨

[6] صيقل الإسلام، المناظرات ص: ٤٢٨.

[7] الكلمات، نكتة توحيدية في لفظ ''هو''، ص: ١٨٠.

[8] بديع الزمان سعيد النورسي: ''اللمعات'' ص: ٢٨٣.

[9] بديع الزمان سعيد النورسي: ''الشعاعات'' ص: ١٨٧-١٨٨.

[10] بديع الزمان سعيد النورسي: ''المكتوبات'' ص: ٥٤

[11] بديع الزمان سعيد النورسي: اشارات الاعجاز، ص: ٥٩.

[12] صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية العرفية، ص: ٤٤٦.